الذكرى الخمسين لبرنامج "الإنسان والمحيط الحيوي" MaB
1971 – 2021 منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة
مُقترح برنامج "بساط الأمثال"
الشبكة الإسبانية لمحميات المحيط الحيوي (RERB)،

"لطالما كان الإنسان على صلة وثيقة بالطبيعة، ورغم أن عالمنا اليوم أكثر ترابطاً من أي وقت مضى، إلا أن هذا الترابط لا يعني بالضرورة عدالة أكبر. فالنزعة المستمرة نحو الاستهلاك وتكديس الموارد تقوّض الحق العالمي في التمتع بعلاقة متوازنة مع نسيج الحياة. ووفقاً لقوانين الفيزياء والبيولوجيا، فإن الإفراط في استنزاف جزء من هذا النسيج يؤدي حتماً إلى ظهور فجوات في أماكن أخرى. هذه الفجوات تتزايد وتنتشر بشكل غير عادل، في مشهد من الظلم البيئي العالمي غير المسبوق. ورغم ضيق الوقت وصعوبة التحديات، لا يزال بإمكاننا إعادة نسج هذا النسيج، والمشاركة فيه بخيوطنا الفردية. فرغم هشاشة كل خيط على حدة، إلا أن قوة النسيج تكمن في اتحادها، قوة تنبع من تعدد نقاط الضعف. أهدي هذه الجائزة لكل من يكافح بمحبة وثبات، لأولئك الضعفاء الذين بفضلهم سيستمر نسيج الحياة على الأرض".

ساندرا ميرنا دياث، الحائزة على جائزة أميرة أستورياس لعام 2019

بعد مرور خمسين عاماً، آن الأوان لاستخلاص الحكمة من برنامج "الإنسان والمحيط الحيوي"؛ فنحن جميعاً جزء من هذا المحيط.

أُطلق برنامج اليونسكو "الإنسان **و**المحيط الحيوي" بهدف إعادة بناء العلاقة الحيوية بين الإنسان والطبيعة، وهي علاقة ضرورية لجميع المجتمعات. ويعكس اسم البرنامج ذاته هذا الترابط، في مقابل المفهوم الخاطئ القائم على التضاد بين "التنمية **أو** الطبيعة"، وهو تصور قاد البشرية إلى أزمات نعيشها اليوم، وقد تتفاقم في مستقبل أبنائنا بعد مرور خمسين عاماً.

هيمنة الثقافة الغربية على الكوكب وتوسعها عبر التكنولوجيا

شهدت القرون الأربعة الماضية تركيزاً للتقدم العلمي والتقني والثقافي حول المحيط الأطلسي. ومع عبور هذا المحيط، بدأت الثقافات الأوروبية توسع نفوذها، بدءاً من استعمار أمريكا. وبعد ثلاثة قرون، برزت الولايات المتحدة كمركز عالمي لريادة الأعمال، مدفوعة بفكرة التوسع اللامحدود، كما لو أن العالم لا يملك حدوداً. وقد شكّل اكتشاف "العالم الجديد" لحظة مفصلية في إدراك حجم الكوكب، خلال محاولة الوصول إلى الهند.

ظل ذلك وهماً محموماً قائماً حتى اليوم، مدفوعاً بالسعي وراء ابتكارات تكنولوجية ومكاسب تجارية وآفاق جديدة، دون اعتبار للموارد الطبيعية، أو الأثر البيئي، أو التحولات الثقافية المصاحبة. وقد أدى تجاهل الخصائص المعقدة للتنوع الحيوي وتفاعلنا معه إلى تحويل هذا السعي إلى رحلات استكشافية في مستقبل مجهول، بلا خرائط.

التنـوع البيئي، أو التعقيد البيئي، يعكس مسـتوى وعي الإنسـان وإدراكـه، ويُعـد مؤشراً على ذكائـه الجماعي.

تُجسد ثقافات سكان الجزر والسكان الأصليين مثالاً لمجتمعات تدرك حدودها البيئية

في اسـتعارة بصرية لافتة، يستحضر الفيلسـوف الفرنسي برونـو لاتـور مشـهد غـاليليو وهـو يوجـه تلسـكوبه من بحـيرة البندقية نحـو النجـوم، متأملاً الرابط بين حركـة الأجـرام السـماوية وديناميكيات الأرض. هذا التأمل كان بداية مسار العلم والحداثة، الذي ارتبط بالاستكشاف الأوروبي للعالم.

يخلص لاتور إلى أن على العلم اليوم أن يعيد توجيه اهتمامه نحو الأرض، لفهم شروط الحياة وإمكانية الاستدامة، ومقارنتها بظواهر الحياة في الكواكب المجاورة. فالسؤال الجوهري هو: ما الذي يجعل هذا الكوكب قابلاً للسكن؟

تتمتع كل ثقافة داخل محميات المحيط الحيوي بسمات فريدة، كما أن أوجه التشابه بينها تكشف عن محدودية فهمنا للطبيعة. وفي الذكرى الخمسين لبرنامج "الإنسان والمحيط الحيوي"، اقترحنا تنظيم نشاط تعليمي يسلط الضوء على الثقافات الأصلية التي تتعايش بتناغم مع أكثر المناطق الطبيعية تميزاً على الكوكب: محميات المحيط الحيوي.

بعض الجزر المصنفة كمحميات من قبل اليونسكو تحتضن ثقافات متجذرة في بيئتها، حيث تُوظف الحدود الجغرافية والبيئية كعناصر إيجابية تُدمج في الهوية الثقافية، وتُطوّر نماذج تنموية مستدامة تقوم على قيود ذاتية تحمي التراث المحلي.

في جميع محميات المحيط الحيوي، تعيش مجتمعات بشرية تحافظ على ممارساتها التقليدية، مما يسهم في تعزيز التنوع البيولوجي وصون الموارد الطبيعية الحيوية للحياة الاجتماعية. وغالباً ما تكون هذه الممارسات نتاج تجارب طويلة عبر الأجيال، ورغم ذلك، لا يزال الكثير منها غير مفهوم بالكامل. لذا، من الضروري دراسة المعارف المتجسدة في اللغات الأصلية، لما تحمله من حكمة قد تكون منسية أو غير مُترجمة بشكل دقيق في السياقات الحضرية.

نستخلص هنا بأن المجتمعات التي تعيش في محميات المحيط الحيوي تتميز بمعرفة ثقافية واسعة، وبأساليب خاصة في التعامل مع بعضها البعض ومع البيئة المحيطة، وذلك نتيجة لتاريخها المشترك، وقراراتها الاقتصادية والسياسية، وصراعاتها، ونُظمها التعاونية. لا نسعى هنا إلى تصنيف هذه المجتمعات أو تحديد أنماطها الاجتماعية، بل نهدف إلى اقتراح منهجية لدراسة نوعية تسلط الضوء على التحديات التي تواجهها هذه المجتمعات في علاقتها مع الطبيعة.

تحمل الكلمات والأمثال الشعبية، بما فيها من معانٍ وعواطف، دلالات عميقة تعكس التصورات الاجتماعية للأفراد في منطقة معينة. فهي تكشف كيف يعيشون واقعهم، وكيف يفسرونه، ويعبّرون عن معاناتهم أو متعتهم فيه. ومن خلال هذه التعبيرات، يمكن لهؤلاء الأفراد نقل تجربتهم الخاصة إلى المؤسسات الإدارية، مستندين إلى استدلالاتهم الذاتية التي تنبع من واقعهم اليومي.

نتحدث هنا عن نسيج الكلمات ← بساط الأمثال، روابط بشرية مع "الطبيعة"

يجدر بنا، في هذا القرن الحادي والعشرين، أن نتأمل بعمق كيف وصلنا إلى ما نحن عليه اليوم.
لقد فقدت الثقافة الغربية عنصراً جوهرياً، يمنعها من إدراك عبثية جشعها اللامحدود وتوسعها المستمر. هذا العنصر يرتبط بفهم الإنسان لموقعه ضمن الطبيعة، وبكيفية تجاهلنا لتأثيرنا على المحيط الحيوي واعتمادنا المتبادل على الآخرين.

في عام 2019، وخلال الدورة التدريبية "أمام الأنثروبوسين" التي نُظمت في جزيرة لانزاروت بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد الفنان ثيسار مانريكي، ألقت الزعيمة الأصلية من غواتيمالا، لوليتا تشابيث، كلمة في قاعة ساراماغو التابعة لمؤسسة مانريكي، تناولت في حديثها العلاقة العميقة التي تربط الشعوب الأصلية في أبيا يالا بـ"الأرض الأم"، والتي لا يزالون يذكرون اسمها يومياً، تعبيراً عن شعورهم بأنهم جزء لا يتجزأ منها. وأكدت أن ثقافات السكان الأصليين حول العالم تتميز بتقديرها العميق للترابط بين الكون، والكوكب، والحياة البشرية وغير البشرية، والبيئة المادية، مما يعكس فهماً شمولياً للحياة والوجود.

إذا كان الغرب قد فقد شيئاً أثناء توسّعه في العالم، فقد يكون من المفيد أن نبحث في هامش هذه الحضارة، التي أصبحت اليوم حضارة حضرية، عن كلمات تحمل القدرة على إعادة وصل الإنسان بالطبيعة. قد تكون هذه الكلمات علامات من الماضي بقيت حيّة حتى اليوم، أو تعبيرات جديدة تروي دون كلل قصص العلاقة بين الإنسان والعالم من حوله، قديماً وحديثاً.

سيُعرض جوهر هذا البرنامج التعاوني المفتوح في الصفحة التالية. وقد انطلق بموافقة المجلس العلمي لمحميات المحيط الحيوي في لانزاروت، وحظي بدعم جميع المحميات في إسبانيا ومجلسها العلمي، قبل تقديمه إلى اللجنة الإسبانية لبرنامج "الإنسان والمحيط الحيوي"، ثم إلى منظمة اليونسكو، ومنها إلى الشبكة العالمية لمحميات المحيط الحيوي. ونظراً لأهمية هذا المسار، نرى ضرورة الاستفادة من المؤتمر العالمي الخامس للمحميات الحيوية في الصين عام 2025.

البرنامج المُقترح لعام 2025

بساط **الأمثال**

نقترح على منظمة اليونسكو إطلاق مبادرة "بساط الأمثال" ضمن شبكة محميات المحيط الحيوي العالمية، لاختيار تعبيرات من اللغات الأصلية للمجتمعات المحلية، مثل الأمثال، أو الأحاجي، أو الأدعية، أو القصائد، تُجسّد **العلاقة بين الإنسان والطبيعة**.

العناصر الشفوية الأساسية لبرنامج "بساط الأمثال":

- الحدود الطبيعية
- العلاقة البيئية
- الأفراد في المجتمع

نحن جزء من النظام الحيوي لناتورا

من المصطلحات التي تخلّى عنها الغرب مصطلح "غايا"، رغم أنه عاد للظهور في سياق علمي حديث. ففي الوقت الذي طوّر فيه العالمان جيمس لافلوك ولين مارغوليس برنامج "الإنسان والمحيط الحيوي"، استُدعي اسم الإلهة اليونانية "غايا" لوصف فرضية علمية أصبحت اليوم نظرية معترف بها، تؤكد الترابط العميق بين عناصر الحياة على الأرض، وتعكس تعقيد النظام الحيوي للكوكب. هذا الفهم يدعو إلى تبني نهج أكثر تواضعاً وحذراً في التخطيط والتنمية.

أيلول 2023 - الشبكة الإسبانية لمحميات المحيط الحيوي

وافق مجلس مدراء الشبكة الإسبانية لمحميات المحيط الحيوي في أيلول 2024 على إطلاق برنامج "بساط الأمثال"، بهدف إحياء المعارف التقليدية وتعزيز الاستدامة.

يهدف البرنامج إلى جمع الأمثال المتداولة أو المتذكّرة لدى المجتمعات المقيمة في محميات المحيط الحيوي التابعة للشبكة، لعرضها بمناسبة اليوم الدولي لمحميات المحيط الحيوي الذي أقرّته اليونسكو.

ومنذ عام 2023، يجتمع فريق عمل من الشبكة بشكل دوري لمتابعة تنفيذ المبادرة، تحت إشراف وتنسيق أكيلينو ميغيليث لوبيث، مدير محمية لانزاروت البيولوجية.

سيتم عرض هذا البرنامج في المؤتمر العالمي الخامس لمحميات المحيط الحيوي، الذي سيُعقد في هانغتشو بالصين، من قبل الشبكة الإسبانية والأمانة الفنية للشبكات المواضيعية التي تشارك فيها إسبانيا، وهي:

- الشبكة العالمية لمحميات المحيط الحيوي في الجزر والمناطق الساحلية
- الشبكة العالمية لمحميات المحيط الحيوي الجبلية